مظاهر التراث فی دیوان بدوی الجبل

سندس کردآبادی
استاذة مساعدة بجامعة آزاد الإسلامیة، طهران مرکز، قسم اللغة العربیة و آدابها
سعیده رنجبرنژاد
طالبة الماجستیر بجامعة آزاد الإسلامیة، طهران مرکز

تاریخ دریافت: ۱۳۹۰/۴/۱۴ تاریخ پذیرش: ۱۳۹۰/۴/۳۰

الملخص

شاع فی الشعر العربی المعاصر ظاهرة توظیف التراث و قد بات من أبرز و أهم سمات هذه الفترة. فقد استطاع الشعراء العرب و من خلال استخدامهم التراث، التعبیرَ عن مفاهیم قد یصعب أحیاناً التعبیر عنها بشکل مباشر و صریح کالرفض و التمرد و الحریة أو النصر و الهزیمة. تهدف هذه الدراسة إلی تبیین هذه الظاهرة فی دیوان الشاعر السوری بدوی الجبل الذی لم تتم له دراسة مستقلة خاصة إلا باشارات متناثرة فی طیات الکتب و الدراسات. صُنّفت ملامح التراث و أشکاله عند الشاعر البدوی تحت أربعة بنود: التراث التاریخی، التراث الدینی، التراث الأدبی، التراث الصوفی.

الکلمات الدلیلیة: الشعر المعاصر، بدوی الجبل، التراث.

نبذة عن حیاة الشاعر

ولد الشاعر محمد سلیمان الأحمد سنة ۱۹۰۳م فی قریة «دیفة» التابعة لقضاء «الحفة» فی جبل «اللکام» بمحافظة اللاذقیة (القنطار، ۲۰۰۰، ۲۱). کان والده الشیخ سلیمان الأحمد بن عبود عضواً فی المجمع العلمی بدمشق و أصبح بیته مرکزاً دینیاً و علمیاً و محجة لطالبی المعرفة، یرتل فیه القرآن و یجوّد الشعر (الجبل، ۲۰۰۰، ۷). و أخذ یعلمه اللغة و الدواوین الشعریة و الکتب التی إهتم بها أهل هذا الجیل و أهمها نهج البلاغة للإمام علی (ع) و دیوان الشریف الرضی و تلمیذه مهیار ثم القرآن الکریم الذی هو معلم الأدب الأول. فی

Archive of SID

www.SID.ir

هذا الجو اللغوی الرفیع نشأت شـاعریة البدوی (الجندی، ۱۹۶۵، ۵۵). و قد ظهر علی النـاس بشعره و هو فی التاسعة عشرة من عمره بعد أن عنی به أبوه فی نشأته الشعریة و حوالی هذا السن أظهر دیوانه فی مئتی صفحة و سمّاه «الشفق» و أقبل الأدباء و العلماء علیه إقبالاً لم یشهده شعر شاب قبله (الدهان، ۱۹۶۸، ۲۲۷). أحبّ البدوی الشعر القدیم و وجد مع تـنـامـی وعیه کل الأسباب لإقتفاء أثر هذا الشعر و الإقتداء به. و قد حفظ البدوی مع رعـیـل مـن الروّاد جید الأدب القدیم ثم أقدم هذا الرعیل علی معارضة هذا الشعر و عبّر بمحاکاة أسلوبه عن قضایا العصر (الدسوقی، ۱۹۶۶، ۲۱۱/۲). فالفن الشعری لدیه «یقرّه من الأخذ بفلسفته عند الرومانسیین، بوح بما فی النفس یجعله یلتمس العزاء فی مخالطة الطبیعة و کائناتها و یقربـه من تلمس حرکة الحیاة فیها، و إنطاقه صورها بصوته الخاص الذی یمثّل الحـزن و الـهـم أعذب نبراته، و یکون فی مجموعه عماد رؤیته الجمالیة نفوذاً فی متلقیه» (الأشـتـر، ۲۰۰۸، ۸۸). و قد تغلب علی شـعره الطابع الرومانسی تبعاً للمنهج السائد أنذاک (الـدهـان، ۱۹۶۸، ۲۳۰). و قد قال فیه شفیق جبری: «لا خوف علی خلود عبقریته، ما دمنا نحتاج فـی کـل العصور إلی شکوی الدهر، و الدنیا و الناس، و ما دامت العربیة لغة کثیر مـن الـخـلـق، و سیکون شعره غذاءً روحیاً لمن یتذوق الشعر». (الخیر، ۱۹۸۳، ۳۵)

بینما کان ذکر الوطن تمتمات علی الشفاة إبان الإستعمار الفرنسی جهر بدوی الجبل مـع إخوانه بوطنیته و حمل رایة الوطن و إنطلق إلی ساحات النضال السیاسی (الجبل، ۲۰۰۰، ۹). بعد دخول المحتلین الأراضی السوریة، توارى الشاعر.

عن الأنظار بعد أن کان هناک أمر بإعتقاله یحمله المحتلون معهم (القنطار، ۲۰۰۰، ۳۹). ثـم سجن فی سجن الدیوان العرفی الحربی فی زقاق البلاط ببیروت حیث بقی ستة عشر شهـراً، و لفت زعماء محافظة اللاذقیة نظر المراجع المسؤولة إلی صغر سن الشاعر المعتقل و قـد تبین لهم فیما بعد أن الشاعر قد حکم غیابیاً و کانوا یظنونه أکبر مما هو فی الواقع بکثیر ولم یکن لیخطر ببالهم أنه دون سن الرشد. فأتی أمر من وزارة الحربیة یوقف التنفیذ و هـکـذا أُطلق سراح الشاعر المعاصر. (عکاش، ۱۹۶۸، ۱۲)

عندما إستقلت سـوریا، أسهم البدوی فی بناء الوطن نائباً ثم وزیراً مراراً عدیدة منذ عام ۱۹۳۰ و لکـنه ظل فی کل أحواله الشـاعر الذی یغنی الوطن و سعی الفرنسیون إلی کسـب وده بالمال و الجاه و شـراء صمته بعد أن أقلقهم شعره و لکـن جهودهم ذهبت عبثاً (القنطار،

Archive of SID

www.SID.ir

۲۰۰۰، ۴۲). و عن نهایة حیاته یقال: «ظهر الثلاثاء الواقع فی ۱۹۸۱/۸/۱۸ توقف قلب الشاعر الکبیر بدوی الجبل إلی الأبد عن عمر یناهز الـ۷۸ سنة». (روبرت ب، ۱۹۹۶م، ۱/۲۹۶)

التراث:

المدلول اللغوی:

الأصل فی کلمة التراث (Heritage) ورث، و تدل مادة ورث فی معاجم اللغة العربیة علی المال الذی یورثه الأب لأبنائه (وتار، ۲۰۰۲، ۱۹). جاء فی لسان العرب: الإرث: الأصل. الإرث فی الحسب و الورث فی المال. و الإرث: المیراث. (إبن منظور، ۱۹۹۹، مادة ورث)

و إستخدم القرآن الکریم کلمة «التراث» بنفس المعنی الذی ورد فی معاجم اللغة، أی المال: و تأکُلونَ التُّراثَ أکلاً لَمَّاً (الفجر: ۱۹). و لم تستخدم کلمة التراث بالمعنی الإصطلاحی إلا فی العصر الحدیث، حیث یتباین مفهوم التراث فی الثقافة العربیة المعاصرة من باحث إلی آخر، تبعاً لإختلاف إیدیولوجیا الباحثین و تعدد مواقفهم. (وتار، ۲۰۰۲، ۱۹)

المدلول الإصطلاحی

إذا کان الباحثون یتفقون علی أن التراث ینتمی إلی الزمن الماضی، فإنهم یختلفون بعد ذلک فی تحدید هذا الماضی، فیری بعضهم أن التراث هو کل ما وصل إلینا من الماضی البعید (وتار، ۲۰۰۲، ۱۹). و یعرف التراث علی هذا الأساس بأنه کل ما ورثناه تاریخیاً. و هناک من یعتقد أن التراث هو ما جاءنا من الماضی البعید و القریب أیضاً. (الجابری، ۱۹۹۱، ۴۵)

فالحدیث عن التراث حدیث فی الهویة، فالتراث، تراث أی أمة فی عرف الباحثین و المختصین هو حدیث فی ماضی الأمة بمختلف مکونات هذا الماضی، و مکونات ماضی أی أمة هی إمتداد جذورها، و هی عناصر الهویة و خصائص شخصیة الأمة. من هذا المنطلق فإن تناول التراث بالبحث و الدراسة و التنقیب یدخل فی باب الواجب تجاه الإنتماء، و تجاه السعی لبناء مستقبل الأمة، لأن من لا ماضی له لا حاضر له، و من لا حاضر له لا مستقبل له. أو کما یقال: «من یطلق ناره علی الماضی یطلق المستقبل ناره علیه». و نحن الیوم نری

Archive of SID

www.SID.ir

کیف أن الشعوب التی لا ماضی لها تبحث عن أی ماض کی تعزز حضورها و حاضرها، بل إن بعضها یختلق الماضی إختلاقاً لصنع هویة، و یبذل من أجل ذلک الغالی قبل الرخیص.

توظیف التراث عند البدوی و أشکاله

«إن تراث الشاعر داخل ضمن التکوین النفسی للشاعر أراد أم لم یرد، شعر بذلک أم لم یشعر، فتراث الأمة حاضر من حاضرها، مؤثر فی تربیتها و فی تکوین شخصیتها و فی عواطفها، و أفکارها و فی آمالها و آلامها و تطلعاتها» (الکبیسی، ۱۹۷۸، ۱۰). إن لتوظیف التراث عند البدوی أهمیة خاصة فی الکشف عن البنیة الفنیة لقصائده من خلال متابعة هذه الظاهرة و کشف العلاقات التی تربط النص الشعری الحاضر بالنصوص الغائبة. و هنا یعمد الخطاب الشعری إلی توجیه قوة ضاغطة، خفیة تدفع المتلقی و المخاطب إلی إستحضار النص الغائب من خلال بعض الإشارات و التضمینات لبعض المفردات و التراکیب (شرتح، ۲۰۰۵، ۱۷۱). و فیما یلی نعرض أشکال توظیف التراث و استعمالاته فی دیوان الشاعر بدوی الجبل:

التراث التاریخی

الأحداث التاریخیة و الشخصیات التاریخیة لیست مجرد ظواهر کونیة عابرة، تنتهی بإنتهاء وجودها الواقعی، فإلی جانب ذلک لها دلالتها الشمولیة الباقیة و القابلة للتجدد– علی إمتداد التاریخ– فی صیغ و أشکال أخری. فدلالة البطولة فی قائد معین، أو دلالة النصر فی کسب معرکة معینة تظل– بعد إنتهاء الوجود الواقعی لذلک القائد أو تلک المعرکة – باقیة و صالحة لأن تتکرر من خلال مواقف جدیدة و أحداث جدیدة، و هی فی نفس الوقت قابلة لتحمل تأویلات و تفسیرات جدیدة (عشری زاید، ۲۰۰۶، ۱۲۰). «إذ ان التاریخ لیس وصفاً لحقبة زمنیة من وجهة نظر معاصر لها، إنه إدراک إنسان معاصر أو حدیث له، فلیست هناک إذن صورة جامدة ثابتة لأیة فترة من هذا الماضی». (ناصف، ۲۰۵)

یختار الشاعر من الشخصیات و الأحداث التاریخیة ما یوفق طبیعة الأفکار و القضایا و الهموم التی یرید أن ینقلها إلی المتلقی، و من ثم تنعکس طبیعة المرحلة التاریخیة و الحضاریة التی عاشت الأمم فی الحقبة الأخیرة، و إحباط الکثیر من أحلامها، و خیبة أملها

Archive of SID

www.SID.ir

فی الکثیر مما کانت تأمل فیه الخیر، و سیطرة بعض القوی الجائرة علی بعض مقدراته، ینعکس کل ذلک علی نوعیة الشخصیات و الحوادث التی یستمدها الشاعر. (عشری زاید، ۱۹۹۷، ۱۲۰)

من الظواهر اللافتة فی إستخدامات اللغة الشعریة عند البدوی إحتواؤها الأدائی لمعطیات التاریخ و دلالات التراث، إذ یقوم الشاعر بإستلهام الحدث التاریخی و الشخصیات التاریخیة بغیة توظیفها فی بنیة النص بما تحمله من دلالات و إشارات، تتیح للشاعر و للمتلقی علی ما تفجره الشخصیات التاریخیة، أو الموقف التاریخی من مشاعر و دلالات، تنمی القدرة الإیحائیة للقصیدة. و تبین القراءة التحلیلیة لقصائد البدوی، إستحضاره الشخصیات التاریخیة المهمة التی ترکت بصمات و إیحاءات خاصة فی الوجدان العربی و هنا یسقط الشاعر الماضی علی الحاضر بغیة إثراء دلالات النص عن طریق التأثیر و الإیحاء معاً (شرتح، ۲۰۰۵، ۱۷۱). علی سبیل المثال نقرأ له من قصیدة «من وحی الهزیمة» (الجبل، ۲۰۰۰، ۱۹۱) هذه الأبیات الشعریة:

هَلْ دَرَتْ عَدْنُ انَّ مسجدَهَا الأَقْـ ـصَی مکانٌ من أهْلِهِ مهجورُ؟
أینَ مَسرَی البُراق، والقُدْسُ والمهـ ـدُ و بیتٌ مُقدَّسٌ معمُورُ؟
لم یُرَتَّلْ قرآنُ أحمدَ فیهِ و یُزَارُ المبْکَی و یُتْلَی الزَّبوْرُ
طَوَی المصحفُ الکریمُ، و راحَتْ تَتَشاکَی آیاتُه و السُّطورُ
تَستَبی المدنُ و القُری هاتفاتٌ أینَ.. أینَ الرَّشیدُ و المنصورُ
أینَ قبرُ الحُسین ؟ قبرٌ غریبٌ! مَنْیَضُمُّ الغریبَ أو مَنْ یَزورُ
أینَ آیُ القرآنِ تُتْلَی علی الجَمْـ ـعِ و أینَ التَّهلیلُ و التَّکبیرُ؟
یا لَذُلِّ الإسلامِ و القُدْسِ نَهبٌ هُتِکَتْ أرضُهُ فأینَ الغَیورُ
قد تَطُولُ الأعمارُ لا مَجْدَ فیها و یَضُمُّ الأمجادَ یَوْمٌ قَصیرُ

أشار الشاعر الی النبی محمد (ص) و ما کان علیه المسلمون من عظمة و جلال لیمثل و یصور العزة و النصر فی التاریخ الإسلامی.کما یلمح الی حوادث کربلاء و ما حل بالإمام المظلوم الحسین بن علی (ع) و من ثم یشیر إلی هارون الرشید و المنصور محاولاً تحریک مشاعر المتلقی و إنفعالاته عن طریق عقد مقارنة بین الماضی و الحاضر و یرید بذلک

Archive of SID

www.SID.ir

الإستحضار أن يحفز المسلمين على الماضى قدماً فى طريق العزة التى إنحرفوا عنها و سقطوا بدلاً عنها فى هاوية الذلة و حضيضها.

و فى قصيدة اخرى تحمل عنوان «فرعون» (الجبل، ۲۰۰۰، ۱۵۵-۱۵۶) يستحضر الشاعر فيها قصة فرعون و نهايته ليرمز بها إلى الحكام الطغاة و ما سينتابهم أخيراً من انهيار و خذلان:

فرعونَ مِصرَ: و أنتَ مَنْ رَشَقَ المصاحِفَ لا الـولـيـدُ
فرعونَ مصرَ: و أنـتَ مَـنْ قَتـلَ الهواشـمَ لا يزيـدُ
سُمِّيتَ فرعونَ الكِنانةِ و هـى تَسميـةٌ كَـنُـودُ
فرعونُ ذَلَّ به اليهودُ و أنتَ عَزَّ بَكَ الـيـهـودُ
طامِنْ غُرورَكَ، لم تَدُمْ عـادٌ و لا بَقِيَتْ ثمـودُ
و لَئِنْ ذُكِـرتَ فإنَّ ذِكرَكَ لا الزَّكِىُّ و لا الحميـدُ
و لَئِنْ حَكَمتَ فإنَّ عَيشَـكَ لا الهَنـىُّ و لا الرَّغيـدُ

عبّر البدوى فى هذه القصيدة السياسية عن معاناة عاناها المناضلون فى سجون الطغاة، كما عبر عن صبره و تجلده و إيمانه بقضيته التى من أجلها كافح و اضطهد، و هو يسخر بالطغاة الذين إنهار عرشهم بإرادة الله، و يدين الظلمة و الطغاة فيختار لهم فرعون و يجعله محوراً للقصيدة و يكرره مرات متتالية بوصفه رمزاً للطغاة فى كل العصور. و قد قوّى الشاعر من مدلول اللفظ بتكراره الإسم (فرعون). و لعل إحدى مظاهر التهكم و السخرية فى القصيدة تبدو لنا ماثلة عند مقارنته بين الفرعونين إذ إن فرعون القرآن تذل به اليهود بينما فرعون مصر زمانه تعتز به هذه الفئة.

و يستحضر ما أتى الوليد الخليفة الأموى من منكر حين رشق القرآن: «و أنت من رشق المصاحف لا الوليد»، مشيراً إلى قضية صفّين حينما رفع القرآن فوق الرماح. كما يستحضر الخليفة الظالم يزيد بن معاوية و كيف صبّ غضبه على الهاشميين: «و أنت من قتل الهواشم لا يزيد»؛ و ينسب لطاغية مصر كل ما أتى به هؤلاء الظلمة.كما أنه يشير فى البيت الأخير إلى بقاء ذكر فرعون بين الناس حياً ليكون عبرة للآخرين. و قد استحضر بذلك الآية الشريفة: فاليومَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلفَكَ آيةً و إنَّ كثيراً مِنَ النَّاسِ عن آياتِنا لَغافِلُونَ . (يونس: ۹۲)

Archive of SID

www.SID.ir

التراث الدینی

کان التراث الدینی فی کل العصور و لدی کل الأمم مصدراً من مصادر الإلهام الشعری، حیث یستمد منه الشعراء نماذج و موضوعات و صوراً أدبیة، و الأدب العالمی حافل بالکثیر من الأعمال الأدبیة العظیمة التی تشکل محورها شخصیة دینیة أو موضوع دینی، أو التی تأثرت بشکل أو بآخر بالتراث الدینی. و «إذا کان الکتاب المقدس هو المصدر الأساسی الذی إستمد منه الأدباء الأوربیون شخصیاتهم و نماذجهم الدینیة، فإن عدداً کبیراً منهم قد تأثر ببعض المصادر الدینیة الإسلامیة، و فی مقدمتها القرآن الکریم، و إستمدوا من هذه المصادر الإسلامیة الکثیر من الموضوعات و الشخصیات التی کانت محوراً لأعمال أدبیة عظیمة». (عشری زاید، ۱۹۹۷، ۷۵)

بالنسبة إلی الشاعر بدوی الجبل فمن أکثر ظواهر الإستدعاء کثافة فی دیوانه إستدعاء الخطاب القرآنی و قد نجح البدوی فی توظیف النص القرآنی، بما یتلائم و سیاق قصائده، لذلک ساهمت التراکیب القرآنیة ـ لدی البدوی ـ فی تشکیل رؤیة جدیدة للقصیدة، و فتحت لها آفاقاً ممتدة، أغنت فضاء قصیدته و عالمه الشعری بأکمله، حتی أصبحت قصائده أشبه بلوحات فنیة. و یمکن القول إن توظیف التراث الدینی فی الشعر یصبح تعزیزاً قویاً لشاعریته و داعماً لإستمراره فی ذاکرة الإنسان. (شرتح، ۲۰۰۵، ۱۸۰)

هذا و بإمکاننا أن نعالج هذا التراث فی أقسام: ۱- القرآن الکریم ۲- شخصیات الأنبیاء ۳- الشخصیات المنبوذة.

۱- القرآن الکریم

یقوم بدوی الجبل بإستخدام بعض الصور المستوحاة من النصوص القرآنیة، بغیة التأثیر فی المتلقی. فهناک ابیات فی قصیدة «کافور» (الجبل، ۲۰۰۰، ۱۴۹) تشیر إلی الآیة المبارکة: و إذا المَوْءُدَةُ سُئِلَتْ. بأیِّ ذَنْب قُتِلَتْ (التکویر: ۸):

الضَارِعَاتُ إلی السَّماءِ و لا تُجَابُ و لا تُعَـانُ
کالأُمَّهَاتِ الثَّاکِـلاتِ فَعَزَّ شَمٌ و احْتِضَـــانُ
وَأدَ الهَجیرُ بَناتهنَّ فکلُّ رَوض صَحْصَحَانُ

صوّر النص القرآنی هول الجریمة التی کان یرتکبها الجاهلیون فی العصر الجاهلی بوأد

Archive of SID

www.SID.ir

البنات فی التراب، و هنّ علی قید الحیاة. أما فی النص الشعری فإن الشاعر یعکس الآیة، و یعبّر عن قسوة الأمهات اللواتی فقدن معنی الأمومة، وتخلّین عن دورهن الإنسانی و حنانهن الربانی.

و من قصیدة «نم بقلبی» (الجبل، ۲۰۰۰، ۱۲۵) نختار الأبیات التالیة:

مَنْ رَأی فی السَّقامِ سَعداً رَأی الفَجرَ وَدیعَ السَّنا وَسیماً طَلیقا
سَألوا یومَ سَبقِه کیفَ جَلَّی مِن سجایاهُ أنْ یکونَ سَبُوقا
راوَدَتکَ الدُّنیا علی الحُسنِ و الجاهِ فَکُنتَ المُبَرَّأَ الصِّدِّیقا

استحضر الشاعر قصة النبی یوسف (ع) لیعبّر عن عفة الممدوح و طهارته و براءته و صدقه و هی أوصاف أضفاها القرآن علی النبی یوسف(ع)، فینتقی من القصة القرآنیة بعض المفردات و التعابیر التی تساهم فی تبیان الجانب الإیجابی فی الممدوح و تفی بالغرض تماماً مثل: «راودت، المبرأ، الصدیق، الحسن». ولا شک أن إنتقاء هذه الکلمات کانت تحت تأثیر المفردة القرآنیة و من أجل بلورة هذا الإدعاء نذکر الآیات القرآنیة من سورة یوسف: و رَاوَدَتهُ الَّتی هُوَ فی بَیتِها عَنْ نَفسهِ و غَلَّقَتِ الأبوابَ و قالَتْ هَیتَ لَکَ قالَ مَعاذَ اللهِ إنَّهُ رَبِّی أحسَنَ مَثوایَ إنَّهُ لا یفلِحُ الظَّالِمونَ (یوسف: ۲۳)؛ قَالَ ما خَطبُکُنَّ إذْ رَاوَدتُّنَّ یوسفَ عن نَفسهِ قُلنَ حاشَ لِلَّهِ ما عَلِمنا علیهِ مِنْ سُوءٍ قالَتِ مرأَةُ العزیزِ الآنَ حَصحَصَ الحقُّ أَنَا راوَدتُهُ عَن نَفسهِ و إنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقینَ (یوسف: ۵۱)؛ وَ ما اُبَرِّئُ نفسی إنَّ النَّفسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إلّا ما رَحِمَ رَبِّی إنَّ رَبِّی غفورٌ رحیمٌ . (یوسف: ۵۳)

۲- شخصیات الأنبیاء

یقوم البدوی باستعراض شخصیة الرسول محمد (ص) فی قصیدة «من وحی الهزیمة» التی سبق و أن تحدثنا عنها فی التراث الدینی أیضاً (الجبل، ۲۰۰۰، ۱۹۵)، نقرأ منها:

هَلْ دَرَتْ عَدْنُ أنَّ مسجدَهَا الأَقْـ ـصَی مکانٌ من أهْلِهِ مهجورُ؟
أینَ مَسرَی البُراقِ، والقُدْسُ والمهـ ـدُ و بیتٌ مُقدَّسٌ معمُورُ؟

الأبیات تحکی قصة المعراج النبوی إلی المسجد الأقصی ففی البیت الثانی یشیر الشاعر

Archive of SID

www.SID.ir

إلی لیلة الاسراء سُبحانَ الذی أسرَی بعَبدِه لیلاً مِنَ المسجدِ الحَرامِ إلی المَسجدِ الأقصَی الذی بارَکنا حولَه (الإسراء: ۱). کما یذکر إسم الفرس التی کان الرسول یمتطیها تلک اللیلة. و فی البیت الخامس یذکر سدرة المنتهی التی مرّ بها الرسول (ص) فی معراجه و التی أشارت إلیها الآیات المبارکة: وَ لَقَد رَءَاهُ نَزلَةً أُخرَی. عِندَ سِدرَةِ المُنتَهَی. عِندَها جَنَّةُ المأوَی (النجم: ۱۳-۱۵). هذا و قد إستخدم الشاعر التاریخ و القرآن معاً للتأکید علی مکانة القدس الدینیة و لتتبلور للمسلمین عظم المصیبة التی حلّت بهم عند سقوط القدس لعلهم ینهضون و یستعیدونها.

فی قصیدة «یا وحشة الثأر» (الجبل، ۲۰۰۰، ۱۳۰) یشیر الشاعر إلی قصة النبی موسی (ع) و مناجاته الله سبحانه و تعالی فی الوادی المقدس و إقترابه من الطور کما ورد فی القرآن الکریم: هَلْ أتاکَ حدیثُ موسی. إذْ نادَاه ربُّهُ بالوَادِ المقدَّسِ طُوی (النازعات، ۱۵-۱۶)، کما یستحضر فی البیت الثانی قصة النبی إبراهیم (ع) و معجزة الله سبحانه و تعالی حین أنقذه من النیران المشتعلة أو اللهب المضطرم، لذلک أردف لفظة (اللهب) بصفة (القدسی) تنبیهاً و تأکیداً علی استحضاره لهذه المعجزة الإلهیة:

ناجَی علی الطُّورِ مُوسی و النِدامُ لنا فکیفَ أغفَلَ موسَی حِینَ ناجانا
إنْ آنسَ النَّارَ بالوادی فقد شَهِدَت عَینی مِنَ اللَّهَبِ القُدسیِّ نِیرانا

بعد ذلک یلمح إلی دکّ الجبل حین یطلب النبی موسی رؤیة الله کما ورد فی کلام الباری عزّ و جلّ: وَ لَمَّا جَاءَ مُوسَی لِمِیقَاتِنَا وَ کَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِی أَنظُرْ إِلَیکَ قَالَ لَنْ تَرَانِی وَ لَکِنْ نظُرْ إِلَی الجَبَلِ فَإِنِ سْتَقَرَّ مَکَانَهُ فَسَوفَ تَرَانِی فَلَمَّا تَجَلَّی رَبُّهُ لِلجَبَلِ جَعَلَهُ دَکًّا وَ خَرَّ موسَی صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَکَ تُبْتُ إِلَیْکَ وَ أَنَا أَوَّلُ المُؤمِنِینَ (الأعراف: ۱۴۳):

نُطِلُّ مِنْ أفقِ الدُّنیا علی غَدِها فَتَنجَلِی الرَّاسیاتُ الشُّمُّ کُثبانا

۳- الشخصیات المنبوذة

یلمح الشاعر فی قصیدة «فلسفة الحقیقة» (الجبل، ۲۰۰۰، ۳۵۰) إلی قصة ابنی آدم (ع) «قابیل» و «هابیل» بغیة خلق مفارقة تصویریة، بین ثنائیة الخیر و الشر، فیقول:

وَ أَعَادَ مَطْوِیَّ العصُورِ و آدَمَاً یَحْنُو بأدْمُعِهِ علی هَابیلا
مُنِحَ الخُلودَ و لا مُیولَ و لا هَوَیً فَأَبَی و آثَرَ غُربَةً وَ رَحیلا

Archive of SID

www.SID.ir

يستحضر الشاعر فی قوله قصة علی درجة کبيرة من الأهمية فی صراع الخير و الشر، و هی قصة قتل «قابيل» لأخيه «هابيل»، و قد استلهم الشاعر هذه القصة لخلق مفارقة تصويرية و دلالية فی آن واحد، بين الخير المتمثل برفض هابيل قتل قابيل، و الشر المتمثل بإقدام قابيل علی قتل هابيل. و هذا ما يتضح من خلال قوله تعالی: وَ تْلُ عَلَيْهِم نَبَأَ ابنَی آدَمَ بالحقِّ إذ قَرَّبَا قُرْباناً، فَتُقُبِّلَ مِنْ أحَدِهِما و لَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّکَ قالَ إنَّمَا يَتقَبَّلُ اللهُ مِنَ المُتَّقِينَ. لَئِنْ بَسَطْتَ إلیَّ يَدکَ لِتَقْتُلَنِی ما أنَا بِبَاسِطٍ يدِیَ إلَيکَ لأَقْتُلَکَ إنِّیَ أخافُ اللهَ رَبَّ العَالَمِيْنَ . (المائدة: ۲۷-۲۸)

هذا و قد اشير فی الحديث عن التراث التاريخی إلی شخصية فرعون فی قصيدة «فرعون» (الجبل، ۲۰۰۰، ۱۵۵-۱۵۶) التی تحدث عنها البدوی فی عدة ابيات مطلعها: «فرعونَ مصرَ: و أنتَ مَنْ رَشَقَ المصاحفَ لا الوليدُ»، تلک الشخصية التی اشتهرت بالطغيان و الجبروت و مخالفة کلام الله عزّ وجلّ. کما أشار فيها إلی الوليد و يزيد مع ذکر ما فعلوه من رشق القرآن و قتل الهاشميين مما أدّی إلی لصق بصمات الذل و العار علی جبينهما طوال التاريخ البشری.

التراث الأدبی

من الطبيعی أن يکون الموروث الأدبی هو أشد المصادر التراثية أثراً و أقربها إلی نفوس الشعراء المعاصرين، و من بين الشخصيات الأدبية للشعراء مکانة أقرب و ألصق بنفوس الشعراء و وجدانهم، لأنها هی التی عانت التجربة الشعرية و مارست التعبير عنها و کانت هی ضمير عصرها و صوته. فلا غرابة إذن أن تکون شخصيات الشعراء من أکثر الشخصيات شيوعاً فی شعرنا المعاصر و فی ذات الوقت من أکثرها طواعية للشاعر المعاصر و قدرة علی إستيعاب أبعاد تجربته المختلفة. (عشری زايد، ۲۰۰۶، ۱۳۸)

فالأدب بالنسبة إلی البدوی يعنی الإرتباط بالتاريخ و التراث القديم، لذلک کان من الطبيعی أن يتأثّر البدوی بالموروث الأدبی القديم من شعر و نثر. أما الشخصيات الأدبية، التی حظيت بالقدر الأعظم من اهتماماته فهی شخصيات المعری و المتنبی، و أبو تمام، و البحتری، و کذلک حظيت أشعار شعراء المعلقات بعناية خاصة عنده من خلال تناص أشعاره مع بعض منها من جهة، و السير علی منوالها و طريقة بنائها من جهة ثانية. فی هذه

Archive of SID

www.SID.ir

العجالة سنبدأ برصد بعض الشواهد الشعرية من العصر الجاهلی حتی العصر الحديث، لتتيح للمتلقی الإطلاع علی الخلفية التراثية لأشعار البدوی و أثرها فی صوره و تراكيبه و ذائقته الأدبية:

۱- الشعر الجاهلی: أدرک البدوی أنه باستغلاله الإمكانات و الطاقات المتواجدة فی الشعر الجاهلی يمكنه توصل تجربته بمعين لا ينضبّ من القدرة علی التأثير و الإيحاء. قصيدة «علی أطلال الجزيرة» (الجبل، ۲۰۰۰، ۵۱۰) خير مثال يبين تأثير الشاعر بالموروث الجاهلی حيث استخدم الهيكلية التركيبية لبنية معلقة «لبيد» و نظمها كمعلقة لبيد علی البحر الكامل و جعل رويّها الهاء. يقول البدوی:

عَفَـتِ الدِّيارُ و أنكَرَتْ قُصّادَهـــا حَيا الحَيا تلكَ الديارَ و جادَها
أبلَت بَشاشَتَها الخُطوبُ وأقصَدَت فُرسـانَها و تَخَرَّمَت أجوادَهـــا
و أبـــادَ فِتيتَها الزَّمـانُ و طالما مَرَّ الزَّمـــانُ بِفتية فأبادَهـــا
حَييتَـهُـنَّ منـــازلاً مهجـــورةً سَبَتِ المنيةُ هِندَهاً و سُـعادَهـا

يبكی الشاعر أطلال الجزيرة العربية و أمجادها، و يسير بالمطلع علی سنن الجاهليين فی البكاء علی الأطلال متسائلاً عن أهل ودّه، مما تذكرنا هذه القصيدة و بشكل أساسی بمعلقـة لبيد (العامری، ۱۶۳) حيث يقول:

عَفَـتِ الدِّيـارُ مَحَلُّها فَمُقامُـها بِمِنَی تَأَبَّدَ غَـولُها فَـرِجامُها
فمَدافِـعُ الرَّيانِ عُـرِّیَ رَسمُها خَلَقاً كما ضَمِنَ الوحیُ سِلامُها
دِمَـنٌ تَجَرَّمَ بعدَ عَهدِ أنيسِـهـا حِجَجٌ خَلَونَ حَلالُها و حَرامُها

لا شكَّ أن المستوی الواقعی لنص البدوی، يرشد القارئ إلی تناص جلی أو ظاهر مع معلقة «لبيد» من حيث البناء أو الهيكل العام للقصيدة، أو النسق الشعری الذی سار عليه البدوی من خلال تكراره لعبارة «عَفَتِ الديار»، و وقوفه علی الطلل.

۲- الشعر العباسی: قصيدة «و انْجَلَت نفسی فی النور» (الجبل، ۲۰۰۰، ۳۴۲) تبين بوضوح أنها أُنشدت متأثرة باجواء سينية الشاعر البحتری الذی يقول فيها:

Archive of SID

www.SID.ir

أينَ أمسِی ؟ فَـرَّ لا یلـوی بـه مُجتَلی بدر و لا لألأءُ شَمس
حـازَه الدَّهـرُ و مَرَّت فَـوقَـه لُجَجٌ أخطأَها عَدِّی و حَدسی
یا لِأمسـی و هو یجتازُ المَـدَی بین أشـباحٍ من الأیـامِ خُرس
قالَ أمسُ هاتِ عن صاحـبِنا وابعَثِ الذِّکرَیٰ فَطُولُ العَهدِ ینسِی

هذه القصیدة تذکّرنا بسینیة البحتری ، التی یصف فیها إیوان کسری (البحتری، ۱۳۰۰هـ.ق، ۱۰۸):

صُنْتُ نَفْسِی عَمَّا یُدَنِّسُ نَفْسـی و تَرَفَّـعْتُ عن جَدا کُلِّ جبـسِ
و تمَاسَکْتُ حینَ زَعْزَعَنِی الدَّهـ ـرُ التماسَاً منهُ لِتَعْسی و نُکسِی

هناک مقاربة واضحة بین النصین فی المفردات و التشکیل البنائی للقصیدة فی الوزن، و القوافی، و حرکة الرویّ، فالبدوی فی قصیدته یُحوّر فی سیاق أبیاته، لتتفرد ببعض المیزات و الخصائص، عن نص البحتری، إما بالشکل التعبیری، و إما بالشکل التصویری، بید أن التداخل قائم بینهما فی المستویین معاً. فهذا هو البحتری یبغی المواجهة و التماسک ضد السطوة الزمنیة و یتحلی بالصبر أمام الحوادث شاکیاً منها؛ فی حین یختار البدوی الهروب و الفرار من مواجهة الدهر الذی یطمس المعالم و الآثار. فکما یلاحظ هناک فارق تعبیری نجده ایجابیاً لدی البحتری الذی یتخذ الصمود و التماسک أمام نوائب الدهر و مصائبه مقارنة للإختیار السلبی عند البدوی الذی اختار الإستسلام و الهروب.

۳- الشعر الأندلسی: ابن زیدون هو من أبرز الشعراء الأندلسیین الذین تأثّر بهم الشاعر بدوی الجبل و هذا التأثر جلی فی قصیدته «إلی الحبیبة الصغیرة» (الجبل، ۲۰۰۰، ۴۳۸)، نقرأ منها:

أَنَا إنْ بَعُدْتُ عن الدِّیـارِ فإنَّنی یا مَیُّ قلـبی فـی دیارکِ باقِی
حُبِّی و إنْ شَطَّ النَوَی بمَزَارکُم حُبِّـی و أشـوَاقِی لَکُمْ أشْـواقِی
لا تَرْقُبُوا مِنِّی تَنَاسِـیَ عَهْدِکُم إنَّ الوَفاءَ المَحْضَ مِنْ أخْلاقِـی
أنا لَسْتُ أُخْلِفُ بالنَّوَی مِیثاقَکُم أو تُخْلِفون علی النَّوَی مِیثاقِی

Archive of SID

www.SID.ir

یعبر الشاعر عن مدی حبه و یؤکد علی وفائه للحبیب رغم الفراق و النوی متمثلاً بقصیدة «ذکری أیام الوصال» لابن زیدون (ابن زیدون، ۲۰۰۵، ۱۱) حیث یقول:

أضْـحَی التنائِی بَدِیْلاً من تَدَانِیْنَا و نَابَ عَنْ طِیبِ لُقیَانَا تَجَافِینَا
لَمْ نَعْتَقِد بَعدَکُم إلاَّ الوفاءَ لکُمْ رأیَاً، و لم نَتَقَلَّـدْ غَیرَهُ دِینَـا
لا تَحسَبُوا نَأیَکـُم عَنَّا یُغَیِّرُنَا إنْ طَالَمَا غَیَّرَ النَّأیُ المُحبِّینَـا

لقد استخدم الشاعر المعانی المتوافرة فی أبیات ابن زیدون لیعبر عن تجربة إنسانیة قد عانی منها کما کان الحال مع ابن زیدون من قبله.

۴- الشعر المعاصر: لا شک أن تأثر البدوی بشعر بعض أشعار معاصریه دلیل علی تأثر الشعراء بعضهم ببعض، رغم خصوصیة لغة الشعر عند کل شاعر. فهناک بعض الشعراء و من بینهم البدوی یلتقطون صوراً إیحائیة من سائر الشعراء لمنح صورهم الشعریة قوة إیحائیة و دلالیة جدیدة، تسهم فی تعمیق الدلالة، و تعکس فی الوقت نفسه ثقافتهم و قدرتهم الفنیة.

فعلی سبیل المثال لقد تأثر البدوی بالشاعر جبران خلیل جبران فی مستویین: ۱- مستوی لفظی جاء علی شکل تراکیب بسیطة لا تتعدی الکلمتین مثل «الناي» و «السِّر» فی الأبیات التالیة من قصیدة «شعاع العیون» للبدوی (الجبل، ۲۰۰۰، ۵۳۸) و قصیدة «المواکب» لجبران خلیل جبران ۲- مستوی معنوی و هو التأثر بالمنهج و الفکرة و بعض الرؤی أحیاناً، دون تضمین ملفوظات النص الآخر بوضوح؛ یقول البدوی:

فاحْمِلِی النَّایَ و اتبَعِینِـی إلیها فَمِنَ البِـرِّ أنْ یُوَاسَـی الکَـلِیمُ
أسـمعِیها صَوْتَ الملائِکِ یُرْجِع زَهوَهَا صَوْتُکِ النَدِیُّ الرَخِیـمُ
وَ أعِیدِی لَحْـنَ الربیـعِ فَفِیْهِ ما تَمَنَّتْهُ مِن هَـوَیً و حَـنِیـنِ
بَسْمَةٌ فـی الحیـاةِ مِن شَفَتَیْهَا تَبْعَثُ النُّورَ فی ظَـلامِ الحَیـاةِ
....
هـی سـرُّ الحیاةِ أنشودةُ اللهِ شِـفاءُ الدَّاءِ العَصیِّ الکَمِیـنِ

و یقول جبران:

عَـطِنِـی النَّـایَ وَ غَـنِّ فـالغِنـا سِـرُّ الخُلـودْ

Archive of SID

www.SID.ir

و أنينُ النَّـــاى يَبْقَـــى بـعدَ أنْ يَفْنَـــى الوجـــودْ
أعْطِنِـــى النَّـــايَ وَ غَنِّ و انْسَ ما قُلْـــتُ و قُلْتَـا
إنَّما النُّطـــقُ هَبَـــاءٌ فَـــأفِـدْنِـى مـــا فَعَلْتَـــا

تتضح عبارة البدوى «فاحْمِلِى الناى و اتبعينى إليها»، متقاربة لعبارة جبران «أعْطِنِى النايَ وَ غَنِّ»، حيث يرمز المعنى فى العبارتين إلى التجدد و الثورة على المآسى و الأحزان و على الموت أيضاً، و يؤكد أيضاً على استمرارية الحياة فى نبضها و صفائها الروحى. و قد نجد الأمر نفسه فى العبارتين: «هى سِرُّ الحياة أنشودة الله» للبدوى و «فالغنا سِرُّ الوجود» لجبران اللتين تعكسان حب الشاعرين و عشقهما للحياة، و ما الغناء إلا انعكاس حقيقى لنفسيتهما المتفائلة بالوجود و الحياة.

التراث الصوفى

لقد تأثّر البدوى بعالم المتصوفة، لذلک تتمثل رموزهم فى مكونات نصوصه الشعرية، مما ساهم فى توجيه المتلقى نحو تلک النصوص و إحيائها فى ذاكرته. ففى قصيدة «اللَّهب القدسى» (الجبل، ۲۰۰۰، ۳۹۱) يلمّح الشاعر بالفداء الذى قدّمه النبى إبراهيم (ع) و تم فداؤه من قبل الله بذبح عظيم، ليستنبط منه المعنى الصوفى من رغبته فى الفناء لله و الموت فى سبيله حيث يؤثره على الحياة:

آمَنتُ باللَّهَب القُدسىِّ مُضرِمُـهُ أذكَى الأُلوهةَ فينا حِينَ أذكاهُ
تُزَيِّنُ الرُّوحُ قُـــرباناً لِفتنَـــه و قد يَضِنُّ فتُستَجدَى مَناياهُ
و لو أقامَ الضَّحايا مِن مَصارعِها لآثَرَتْ موتَها فيـــه ضَحايـاهُ

الأبيات كما تبدو «ذات نفس روحانى معنوى صوفى، حيث الحب الطاهر النير المنير و لا محبوب دنيوى فيها. فهناک إشارة إلى قصة النبى إبراهيم (ع) مع استذكار النار المعجزة، حيث الأمن و الإستقرار و الرضا بإرادة الله سبحانه و التضحية بروح الرضا على أحسن صورها، فالضحايا فى مثل ذلک الموقف الحرج يفضلون الموت فى سبيل المحبوب و حسب إرادتهم على الفداء الذى جاء ليحل محلهم و يفكهم من قيد الموت المحتوم. و هو

Archive of SID

www.SID.ir

تصویر شعری معاصر لمفهوم صوفی تراثی خاض فیه المتصوفة کثیراً و صاغوه شعراً لما بین التجربتین الصوفیة و الشعریة من علاقة فهناک من قال: إن کـلتا التجربتین الصـوفیة و المعاصرة، تبحثان عن غایة واحـدة، و هـی العودة بالکون إلی صفائه و إنسجامه». (عبدالصبور، ۱۹۶۹، ۱۱۹)

استنتاج

تمکنت هذه الدراسة المتواضعة التوصل إلی النتائج التالیة:

۱- إن للتراث عند البدوی أهمیة خاصة فی الکشف عن البنیة الفنیة لقصائده من خلال متابعة هذه الظاهرة.

۲- من الظواهر اللافتة فی إستخدامات اللغة الشعریة عند البدوی إحتواؤها الأدائی لمعطیات التاریخ و دلالات التراث، یقوم الشاعر بإستلهام الحدث التاریخی و الشخصیات التاریخیة بغیة توظیفها فی بنیة النص بما تحمله من دلالات و إشارات.

۳- توظیف المعطیات القرآنیة لم یقتصر علی الإشارة القرآنیة، أو الإیماءة أو اللفظة، أو الآیة، أو الترکیب، و إنما تعدی ذلک کله إلی استحضار المعجزات و القصص القرآنیة و یمکن القول إن توظیف التراث الدینی فی الشعر یصبح تعزیزاً قویاً لشاعریته و داعماً لإستمراره فی ذاکرة الإنسان.

۴- إن لغة البدوی الشعریة حیة نابضة بثقافة کل العصور، مما جعل قصائده مشحونة بفیض هائل من الدلالات التراثیة.

المصادر و المراجع

القرآن الکریم.

ابن زیدون، ۲۰۰۵، ''دیوان ابن زیدون''، تح: عبد الله سندة، بیروت، دار المعرفة، ط۱.

إبن منظور، ۱۹۹۹، ''لسان العرب''، بیروت، دار صادر.

الأشتر، عبدالکریم، ۲۰۰۸، ''شعراء شامیون قدامی و محدثون''، دمشق، الهیئة العامة السوریة للکتاب، ط۱.

البحتری، ۱۳۰۰هـ.ق، ''دیوان البحتری''، تح: عبیدالله الشیرازی، قسطنطنیة، مطبعة الجوانب، ط۱.

Archive of SID

www.SID.ir

الجابری، محمد عابد، ۱۹۹۱، ''التراث و الحداثة''، بیروت، مرکز دراسات الوحدة العربیة، ط ۲.
الجبل، بدوی، ۲۰۰۰، ''دیوان بدوی الجبل''، قم المقدسة.
الجندی، أحمد، ۱۹۶۵، ''شعراء سوریة''، بیروت، دار الکتاب الجدید، ط ۱.
الخیر، هانی، ۱۹۸۳، ''یحدثونک عن أنفسهم''، دمشق.
الدسوقی، عمر، ۱۹۶۶، ''فی الأدب الحدیث''، بیروت.
الدهان، سامی، ۱۹۶۸، ''الشعراء الأعلام فی سوریا''، بیروت، دارالأنوار، ط۲.
شرتح، عصام، ۲۰۰۵، ''الظواهر الأسلوبیة فی شعر بدوی الجبل''، دمشق، منشورات إتحاد کتاب العرب.
العامری، لبید بن ربیعة، ''دیوان لبید بن ربیعة''، بیروت، دار صادر، د. ت.
عبد الصبور، صلاح، ۱۹۶۹، ''حیاتی فی الشعر''، بیروت، دار العودة، ط ۱.
عشری زاید، علی، ۱۹۹۷، ''إستدعاء الشخصیات التراثیة فی الشعر العربی المعاصر''، القاهرة، دار الفکر العربی.
عکاش، مدحة، ۱۹۶۸، ''مختارات من بدوی الجبل''، دمشق، دار الثقافة.
القنطار، سیف الدین، ۱۹۹۷، ''الأدب العربی السوری بعد الإستقلال''، دمشق، منشورات وزارة الثقافة.
کامبل، روبرت ب، ۱۹۹۶، ''أعلام الأدب العربی المعاصر (سیر و سیر ذاتیة)''، بیروت.
الکبیسی، طراد، ۱۹۷۸، ''التراث العربی کمصدر فی نظریة الإبداع و المعرفة فی الشعر العربی الحدیث''، بغداد، منشورات وزارة الثقافة و الفنون.
ناصف، مصطفی، ''دراسة الأدب العربی''، القاهرة، الدار القومیة للطباعة و النشر، د. ت.
وتار، محمد ریاض، ۲۰۰۲، ''توظیف التراث فی الروایة العربیة المعاصرة''، دمشق، منشورات إتحاد الکتاب العرب، ط ۱.

Archive of SID

www.SID.ir